

﴿أفلا تتذكرون﴾ فتعلمون أن

خالق الأرض والسموات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليتكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة.

﴿يدبر الأمر﴾ القدرى والأمر الشرعى، الجميع هو المنفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند الملك القدير ﴿من السماء إلى الأرض﴾ فيسجد بها ويُسقي، ويُغني ويُفقر، ويُعزِّز ويُذل، ويُكرم ويُهين، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويُنزل الأرزاق.

﴿ثم يعرج إليه﴾ أي: الأمر ينزل من عنده ويعرج إليه ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ وهو يعرج إليه ويصله في لحظة.

﴿ذلك﴾ الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدبير في المملكة، ﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾ بسعة علمه، وكمال عزته، وعموم رحمته، أوجدها، وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها.

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ أي: كل مخلوق خلقه الله، فإن الله أحسن خلقه، وخلق خلقاً يليق به ويوافقه، فهذا عام.

ثم خص الأدمي لشرفه وفضله فقال: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ وذلك بخلق آدم عليه السلام، أي البشر.

﴿ثم جعل نسله﴾ أي: ذرية آدم ناشئة ﴿من ماء مهين﴾ وهو النطفة المستقدرة الضعيفة.

﴿ثم سواه﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه بالمحل الذي لا يليق به غيره، ﴿ونفخ فيه من روحه﴾ بأن أرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، فيعود بإذن الله حيواناً بعد إذ

كان جاداً.

﴿وجعل لكم السمع والأبصار﴾ أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً، حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ الذي خلقكم وصوركم.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿وقالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴿أي: قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿إذا ضللنا في الأرض﴾ أي: ببلتنا وعمزتنا، وتفرقتنا في المواضع التي لا تعلم.

﴿إنا لفي خلق جديد﴾ أي: لمبعوثين بعثاً جديداً. بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء، وذلك لقياسهم قدرة الخالق بقدرهم.

وكلامهم هذا، ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم وعناد، وكفر بلقاء ربهم وجحد، ولهذا قال: ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾ فكلامهم علم<sup>(١)</sup> مصدره وغايته، وإلا، فلو كان قصدهم بيان الحق، لبيّن لهم من الأدلة القاطعة على ذلك، ما يجعله مشاهدات للبصيرة بمنزلة الشمس للبصر.

ويكفيهم أنهم معهم علم أنهم قد ابتدئوا من العدم، فالإعادة أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة، ينزل الله عليها المطر، فتحيا بعد موتها، وينبت به متفرق بذورها.

﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ أي: جعله الله وكيلاً على قبض الأرواح، وله أعوان. ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث، فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿ولو نرى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداهما، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿ولكن حق القول مني﴾ أي: وجب، وثبت

﴿ولو نرى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداهما، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿ولكن حق القول مني﴾ أي: وجب، وثبت

﴿ولو نرى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾

أجمعين \* فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيانكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة، ذكر حالهم في مقامهم ﴿بين يديه﴾<sup>(٢)</sup>، فقال: ﴿ولو نرى إذ المجرمون﴾ الذين أصروا على الذنوب العظيمة، ﴿فناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة قائلين: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ أي: بان لنا الأمر، ورأيناه عياناً، فصار عين يقين.

﴿فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ أي: صار عندنا الآن يقين بما [كننا]<sup>(٣)</sup> نكذب به، أي: لرأيت أمراً فظيماً، وحالاً مزعجة، وأقواماً خاسرين، وسؤلاً غير مجاب، لأنه قد مضى وقت الإمهال.

وكل هذا بقضاء الله وقدره، حيث خلق بينهم وبين الكفر والمعاصي، فلماذا قال: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ أي: لهدينا الناس كلهم، وجمعناهم على الهدى، فمشتيتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿ولكن حق القول مني﴾ أي: وجب، وثبت

(١) كذا في: ب، وفي آ: ظلم، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

وافق غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

وأما جزاؤهم، فقال: ﴿فلا تعلم نفس﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي. أي: فلا يعلم أحد ﴿ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾

﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون﴾ \* أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون \* وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ ينه تعالى العقول على ما تقرر فيها، من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال: ﴿أفمن كان مؤمناً﴾ قد عمّر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مساخط الله، التي <sup>(٢)</sup> يضر وجودها بالإيمان.

﴿كمن كان فاسقاً﴾ قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم، من كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة الله.

أفيستوي هذان الشخصان؟

﴿لا يستون﴾ عقلاً وشرعاً، كما لا يستوي الليل والنهار، والضيء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

﴿أما الذين آمنوا وعملوا

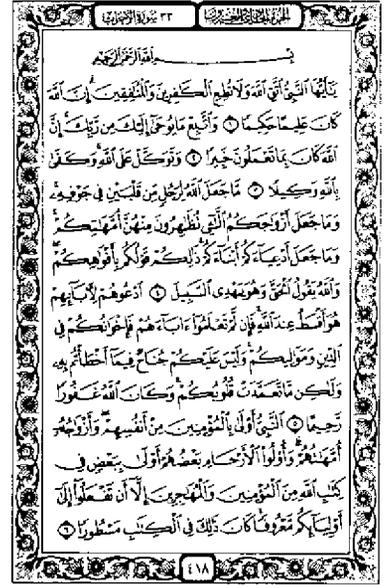
لا يستكبرون \* تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا وما رزقناهم ينفقون \* فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ لما ذكر تعالى الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ [أي: <sup>(١)</sup> إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم: ﴿الذين إذا ذكروا بآيات ربهم نقلت عليهم آيات القرآن، وأنتمم النصائح على أيدي رسل الله، ودُعوا إلى التذكر، سمعوا فقبلوها، وانقادوا، و ﴿خروا سُجداً﴾ أي: خاضعين لها، خضوع ذكر الله، وفرح بمعرفته.

﴿وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ لا بقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول، والتسليم، وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ أي: ترتفع جنوبهم، وتسنزع عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو الذعندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿يدعون ربهم﴾ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما. ﴿خوفاً وطمعاً﴾ أي: جامعين بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها، خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه.

﴿ومما رزقناهم﴾ من الرزق، قليلاً كان أو كثيراً ﴿ينفقون﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خير مطلقاً، سواء



ثبوتاً لا تغير فيه.

﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقدير أسبابه من الكفر والمعاصي.

﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليستردكروا ما فاتهم، قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك، أي: بما عرضتم عنه وتركتم العمل له، وكانكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه.

﴿إننا نسيناكم﴾ أي: تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نسيتم نسيتم، ووذوقوا عذاب الخلد﴾ أي: العذاب غير المنقطع، فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية، كان فيه بعض التفتيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعاذنا الله منه - فليس فيه روح راحة، ولا انقطاع لعذابهم فيها. ﴿بما كنتم تعملون﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سُجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم

(٢) كذا في ب وفي أ: الذي.

(١) زيادة من: ب.

قد صدقها القرآن، فتطابق حقيهما، وثبت برهانها، ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرية محل.

﴿وجعلناه﴾ أي: الكتاب الذي آتينا موسى ﴿هدى لبني إسرائيل﴾ يبتدون به في أصول دينهم وفروعه<sup>(١)</sup>، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

وأما هذا القرآن الكريم، فجعله الله هداية للناس كلهم، لأنه هداية للخلق، في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، وذلك لكماله وعلوه ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾.

﴿وجعلنا منهم﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أئمة يهدون بأمرنا﴾ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن مجاحها في المعاصي واسترسالها في الشهوات.

﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعليماً صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المقيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك، فيالصبر واليقين مثال الإمامة في الدين.

وتم مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأه خطأ أو عمداً، والله تعالى ﴿يفصل بينهم يوم القيامة فيما

يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلائلها ظاهرة، فإنه قال: ﴿ولنديقنهم من العذاب الأدنى﴾ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثم عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار.

ولما كانت الإذاعة من العذاب الأدنى في الدنيا، قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلمهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم كما قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون﴾ أي: لا أحد أظلم وأزيد تعدياً، ممن ذكر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته عليه على يد رسله، تأمره وتذكره مصاحفه الدينية والذنبوية، وتنهاه عن مضاره الدينية والذنبوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد النعمة، ولهذا قال: ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل \* وجعلنا

منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون \* إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو القرآن، الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس بسبع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد أتى الله موسى الكتاب الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي

الصالحات﴾ من فروض ونوافل ﴿فلهم جنات المأوى﴾ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، وتعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه.

﴿نزلاً﴾ لهم، أي: ضيافة وقربى ﴿بما كانوا يعملون﴾ فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بسالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلاً، سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ أي: مقرهم ومحل خلودهم، النار التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يُفترَّ عنهم العقاب ساعة.

﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾ فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ، ردوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب.

﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ فهذا عذاب النار، الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ، فقد ذكر بقوله:

﴿٢١﴾ ﴿ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾

أي: ولنديقن الفاسقين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا، إما بعذاب بالقتل ونحوه، كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ ثم

(١) في النسختين: وفروعه، ولعل الصواب - والله أعلم - ما أثبت.

ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً \* وتوكل على الله وكفى بالله كفيلاً \* أي : يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق، اشكر نعمه ربك عليك باستعمال تقواه، التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته، وأد إلى عباده وحيه، وابدل النصيحة للخلق.

ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد، ولا يردك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ورسوله، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده.

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة، فلا تطعمهم في بعض الأمور، التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم، يضلوك عن الصواب.

﴿و﴾ لكن اتبع ما يوحى إليك من ربك، فإنه هو الهدى والرحمة، وأزج بذلك ثواب ربك، فإنه بما تعملون خبير، يميزكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر.

فإن وقع في قلبك، أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة، حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق، فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله، بأن تعتمد على ربك اعتماداً من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿وكفى بالله كفيلاً﴾ توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده، من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه، من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه، ومن والديه، وأرأف به من كل أحد،

بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة، وبجرد العادة، فلم يوفقوا للخير.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين \* قل يوم الفتح لا يتفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون \* فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون \* أي : يستعجل المجرمون بالسعذاب الذي وعدوا به على التكذيب، جهلاً منهم ومعاندة.

﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم، بتعدينا على زعمكم ﴿إن كنتم﴾ أيها الرسل ﴿صادقين﴾ في دعواكم.

﴿قل يوم الفتح﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئاً، فلو كان إذا حصل، حصل إمهالككم، لتستدركوا ما فاتكم، حين صار الأمر عندكم يقيناً، لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح، انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة محل ف ﴿لا يتفع الذين كفروا إيمانهم﴾ لأنه صار إيمان ضرورة، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي : يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿فأعرض عنهم﴾ لما وصل خطاهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب. ﴿وانتظر﴾ الأمر الذي يحل بهم، فإنه لا بد منه، ولكن له أجل، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر. ﴿إنهم منتظرون﴾ بك ريب المتون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والمعاقبة للتقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله  
ومنه فله تعالى كمال الحمد  
والثناء والمجد

### تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية

﴿١ - ٣﴾ بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً \* واتبع ما يوحى إليك من

كانوا فيه مختلفون \* وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عدها بما خالفه باطل.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون \* أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون \* يعني : أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول، ويهدم إلى الصواب. ﴿كم﴾ أهلكنا من قبلهم من القرون الذين سلكوا مسلكهم، يمشون في مساكنهم، فيشاهدونها عياناً، كقوم هود وصالح، وقوم لوط.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم، ففعل بهم كما فعل بأشياعه من قبل. وعلى أن الله تعالى مجازي العباد، وباعثهم للحشر والتناد. ﴿أفلا يسمعون﴾ آيات الله فيعوبها فيتنفون بها، فلو كان لهم سمع صحيح وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة<sup>(١)</sup> يجزم بها بالهلاك.

﴿أولم يروا﴾ بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا ﴿أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجوداً فيها، فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار. ﴿فنخرج به زرعاً﴾ أي : نباتاً مختلف الأنواع ﴿تأكل منه أنعامهم﴾ وهو نبات البهائم، ﴿وأنفسهم﴾ وهو طعام آدميين.

﴿أفلا يبصرون﴾ تلك المنة، التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهدون بذلك البصر وتلك البصيرة، إلى الصراط المستقيم، ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك

(١) كذا في ب، وفي أ: على حاله لم يجزم، والصواب - والله أعلم - حذف لم.

الإلهية .

«وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن» بأن يقول أحدكم لزوجته: «أنت علي كظهر أمي أو كأمي» فما جعلهن الله «أمهاتكم» أمك من ولدتك، وصارت أعظم الناس عليك حرمة وتحريماً، وزوجتك أحل النساء لك، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟

هذا أمر لا يجوز، كما قال تعالى: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً﴾ .

«وما جعل أديعاءكم أبناءكم» والأديعاء، الولد الذي كان الرجل يدعيه وهو ليس له، أو يدعى إليه بسبب تبنيه إياه، كما كان الأمر بالجاهلية وأول الإسلام .

فأراد الله تعالى أن يبطله ويزيله، فقدم بين يدي ذلك بيان قبحه، وأنه باطل وكذب، وكل باطل وكذب، لا يوجد في شرع الله، ولا يتصف به عباد الله .

يقول تعالى: ﴿فإن لم يجعل الأديعاء الذين تدعونهم، أو يدعون إليكم، أبناءكم، فإن أبناءكم في الحقيقة، من ولدتوهم وكانوا منكم، وأما هؤلاء الأديعاء من غيركم، فلا جعل الله هذا كهذا .

﴿ذلكم﴾ القول الذي تقولون في الدعي: إنه ابن فلان الذي ادعاه، أو والده فلان ﴿قولكم بأفواهكم﴾ أي: قول لا حقيقة له ولا معنى له .

﴿والله يقول الحق﴾ أي: اليقين والصدق، فلذلكم أمركم باتباعه على قوله وشرعه، فقوله حق، وشرعه حق، والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته، لأنه لا يهدي إلا إلى المسبيل المستقيمة، والطرق الصادقة .

خصوصاً خواص عبده، الذين لم يزل يربهم ببره، ويدبر عليهم بركاته الظاهرة والباطنة، خصوصاً وقد أمره بإلقاء أموره إليه ووعدده، فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر، وصعب يسهل، وخطوب تهن، وكروب تزول، وأحوال وحوائج تقضى، وبركات تنزل، ونقم تدفع، وشرور ترفع .

وهناك ترى العبد الضعيف، الذي فوض أمره لسيده، قد قام بأمر لا يقوم بها أمة من الناس، وقد سهل الله [عليه] (١) ما كان يصعب على فحول الرجال، وبالله المستعان .

﴿٤ - ٥﴾ ﴿ما جعل الله لرجل من قلبيين في جوفه وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أديعاءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ \* ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يعاتب تعالى [عباده] (٢) عن التكلم بما ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً لا حقيقة له من الأقوال، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا، فإن ذلك القول منكم كذب وزور، يترتب عليه منكرات من الشرع . وهذه قاعدة عامة في التكلم في كل شيء، والإخبار بوقوع وجود ما لم يجعله الله تعالى .

ولكن خص هذه الأشياء المذكورة لوقوعها، وشدة الحاجة إلى بيانها، فقال: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبيين في جوفه﴾ هذا لا يوجد، فإياكم أن تقولوا عن أحد: إن له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلق



وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته، فمشيئته عامة، لكل ما وجد من خير وشر .

ثم صرح لهم بترك الحاة الأولى، المتضمنة للقول الباطل، فقال: ﴿ادعوهم﴾ أي: الأديعاء ﴿لأبائهم﴾ الذين ولدوهم ﴿هو أقسط عند الله﴾ أي: أعدل وأقوم وأهدى .

﴿فإن لم تعلموا آباءهم﴾ الحقيقيين ﴿فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ أي: إخوتكم في دين الله ومواليكم في ذلك، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والمالاة على ذلك، فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها .

وأما دعاؤهم لأبائهم، فإن علموا، دعوا إليهم، وإن لم يعلموا، اقتصر على ما يعلم منهم، وهو أخوة [الدين] (٣) والمالاة، فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بأبائهم عذر في دعوتهم إلى من تبناهم، لأن المحذور لا يزول بذلك .

﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ بأن سبق على لسان أحدكم دعوته إلى من تبناه، فهذا غير مؤاخذ به، أو علم أبوه ظاهراً، [قد دعوتوه إليه] (٤) وهو في الباطن غير أبيه، فليس (٥) عليكم في ذلك حرج إذا كان خطأ،

(٥) في (أ) وقعت هنا زيادة حرف (في)

ولا محل له .

(٣) زيادة من: ب .

(٤) زيادة من: ب .

(١) زيادة من: ب .

(٢) زيادة من: ب .

على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات، كولايات النكاح والمال، وغير ذلك.

﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ أي: ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تبرعوا لهم تبرعاً وتعطوهم معروفاً منكم، ﴿كَانَ﴾ ذلك الحكم المذكور ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: قد سطر وكتب وقدره الله، فلا بد من نفوذه.

﴿٧-٨﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ \* لیسال الصادقین عن صدقہم وأعد للکافرین عذاباً أليماً ﴿يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً، ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون - خصوصاً، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم، محمد ﷺ، وأمر الناس بالافتداء بهم.

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ، هل وفوا فيه وصدقوا؟ فيثيبهم جنات التعميم؟ أم كفروا، فيعذبهم العذاب الاليم؟ قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

﴿٩-١١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ \* إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا \* هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً ﴿يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويمشهم على شكرها، حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقدا

مع مراد الرسول، أن يقدم مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحد، كائناً من كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبة على محبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه. وهو ﷺ أب للمؤمنين، كما في قراءة بعض الصحابة، يربيههم كما يربي الولد أولاده.

فترتب على هذه الأبوة، أن كان نساؤه أمهاتهم، أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكان هذا مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة، الذي كان قبل يدعى: «زيد بن محمد» حتى أنزل الله ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ فقطع نسبه وانتسبه منه، فأخبر في هذه الآية، أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول، فلا مزية لأحد عن أحد وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة، فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه، فلا يجوز ولا يأسف.

وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، أنهن لا يحملن لأحد من بعده، كما الله صرح<sup>(١)</sup> بذلك: ﴿وَلَا أَنْ تَنْكَحُوا زُرُوجًا مِّن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾.

﴿وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ﴾ أي: الأقارب، قريبا أو بعدوا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [أي: <sup>(٢)</sup> في حكمه، فيرتب بعضهم بعضاً، ويبر بعضهم بعضاً، فهم أولى من الخلف والنصرة.

والأدعياء الذين كانوا من قبل يراثون بهذه الأسباب، دون ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك وجعله للأقارب، لطفاً منه وحكمة، فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة، لحصل من الفساد والشر والتحيل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك، وهذه الآية حجة



﴿ولكن﴾ يواخذكم بما ﴿تعمدت قلوبكم﴾ من الكلام بما لا يجوز. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ غفر لكم ورحمكم، حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم ودنياكم، فله الحمد تعالى.

﴿٦٦﴾ ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ يخبر تعالى المؤمنين خيراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أقرب ما للإنسان، وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه، لأنه عليه الصلاة والسلام، بذل لهم من النصح والشفقة والرأفة، ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم، فرسول الله أعظم الخلق مثلاً عليهم من كل أحد، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على يديه وبسيه.

لذلك، وجب عليه أنه إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس،

(٢) زيادة من: ب.

(١) في: ب: كما سيصرح بذلك.

والحال أنهم قد **عاهدوا** الله من قبل لا يولون الأديار وكان عهد الله مسؤولاً **سيألتهم** عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه، فما ظنهم إذا برهم؟

**١٦٦** **قل** لهم، لائماً على فرارهم، وتخبراً أنهم لا يفيدهم ذلك شيئاً **لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل** **فلو كنتم في بيوتكم**، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم.

والأسباب تنفع، إذا لم يعارضها القضاء والقدر، فإذا جاء القضاء والقدر، تلاشى كل سبب، وبطلت<sup>(٥)</sup> كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه.

**وإذا** حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل، ولتتعموا في الدنيا فإنكم **لا تفتحون إلا قليلاً** متاعاً لا يسوي فراركم، وترككم أمر الله، وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدي، في النعيم السرمدي.

ثم بين أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئاً إذا أراده الله بسوء، فقال: **قل من ذا الذي يعصمكم** أي: يمنعكم **من الله إن أراد بكم سوءاً** أي: شراً، **أو أراد بكم رحمة** فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو.

**ولا يحدون لهم من دون الله ولياً** يتولاهم، فيجلب لهم النفع<sup>(٦)</sup> **ولا نصيراً** أي: ينصرهم، فيدفع عنهم المضار.

فَلَيَمْتَلِئُوا طاعة المنفرد بالأمور كلها، الذي نفذت مشيئته، ومضى قلبه، ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته ولي ولا ناصر.

ثم توعد تعالى المخذلين المعوقين، وتهدهم فقال: **قد يعلم الله المعوقين منكم** عن الخروج لمن **لم يخرجوا** **والقاتلين لإخوانهم** الذين خرجوا:

شركهم، فقالت هذه الطائفة: **يا أهل** يشرب **يريدون**: «يا أهل المدينة»، فتنادوهم باسم الوطن النبيء [عن التسمية]<sup>(٣)</sup>، فيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية، ليس له في قلوبهم قدر، وأن الذي حملهم على ذلك، مجرد الخور الطبيعي.

**يا أهل يشرب لا مقام لكم** أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة، **فارجعوا** إلى المدينة، فهذه الطائفة تحذل عن الجهاد، وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم، ويأمروهم بترك القتال، فهذه الطائفة أشتر الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبن والجوع، وأحبوا أن ينخزلوا عن الصفوف، فجعلوا يعتدرون بالأعذار الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: **ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة** أي: عليها الخطر، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء، ونحن غيب عنها، فأذن لنا نرجع إليها، فنحرسها، وهم كذبة في ذلك.

**وما هي بعورة إن يريدون** أي: ما قصدهم **إلا فراراً** ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعدراً. [لهم]<sup>(٤)</sup> فهو لا قل إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

**ولو دخلت عليهم المدينة من أقطارها** أي: لو دخل الكفار إليها من نواحيها، واستولوا عليها - لا كان ذلك - **ثم سئل هؤلاء الفتنة** أي: الانقلاب عن دينهم، والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين **لأتوها** أي: لأعطوها مبادرين.

**وما تلبثوا بها إلا يسيراً** أي: ليس لهم منعة ولا تصلب على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء، يعطوهم ما طلبوا، ويوافقوهم على كفرهم، هذه حالهم.

وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذلك في وقعة الخندق. ومالأنهم [طوائف]<sup>(١)</sup> اليهود الذين حوالي المدينة، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة.

وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحصرها المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة، والأمر كما وصف الله: **وإذا زاعت الأبصار** وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون أي: الظنون السيئة، أن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته.

**هنالك ابتلي المؤمنون** بهذه الفتنة العظيمة **وزلزلوا زلزالاً شديداً** بالخوف والقلق والجوع، ليتبين إيمانهم، ويزيد إيقانهم، فظهر - والله الحمد - من إيمانهم وشدة يقينهم، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين.

وعندما اشتد الكرب، وتفاقم الشدائد، صار إيمانهم عين اليقين، **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً**.

وهنالك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون، قال تعالى:

**١٢** **وإذا يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً**.

وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر، إلى الحالة القاصرة<sup>(٢)</sup>، ويصدق ظنه.

**وإذا قالت طائفة من المنافقين**، بعدما جرعوا وقتل صبرهم، صاروا أيضاً من المخذلين، فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من

(٦) في ب: المنافع.

(٧) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

(٥) كذا في ب، وفي أ: بطل.

(١) زيادة من: ب.

(٢) في ب: الحاضرة.

(٣) زيادة من: ب.

﴿هَلِّمْنَا إِلَيْنَا﴾ أي: ارجعوا، كما تقدم من قولهم: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾.

وهم مع تعويقتهم وتخذيْلهم ﴿لَا يَأْتُونَ الْبِأْسَ﴾ القتال والجهاد بأنفسهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهم أشد الناس حرصاً على التخلف، لعدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، ووجود المقتضي للجبين، من النفاق وعدم الإيمان.

﴿أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ﴾ بأبدانهم عن القتال، وأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إليك﴾ نظر المغشي عليه ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾ من شدة الجبن الذي خلع قلوبهم، والقلق الذي أهْلهم، وخوفاً من إيجارهم على ما يكرهون من القتال.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وصاروا في حال الأمن والطمأنينة، ﴿سَلْقُوكُمْ بِالسِّنَةِ﴾ أي: خاطبوكم وتكلموا معكم بكلام حديد، ودعاوى غير صحيحة.

وحين تسمعهم، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام، ﴿أَشْحَةٌ عَلَى الْخَيْرِ﴾ الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحاً بما أمر به، شحيحاً بماله أن ينفقه في وجهه، شحيحاً في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورأيه.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين يتلك الحالة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بسبب عدم إيمانهم أحبط الله أعمالهم، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وأما المؤمنون، فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووقفهم لبذل ما أمروا به، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي:

يظنون أن هؤلاء الأحزاب، الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسابهم.

﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابَ﴾ مرة أخرى ﴿يُودُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة، وذو هؤلاء المنافقون، أنهم ليسوا في المدينة ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنباءكم، ماذا حصل عليكم؟

فتبأ لهم، وبعداً فليسوا من بيال<sup>(١)</sup> بحضورهم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوةٌ حَسَنَةٌ﴾ حيث حضر الهيحاء بنفسه الكريمة، وبأشرف موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، البطل الباسل، فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه؟! فتأسوا به في هذا الأمر وغيره.

واستدل الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل، أن أمته أسوته في الأحكام، إلا ما دلّ الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ، فإن المتأسي به، سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم. وأما الأسوة بغيره إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، كقول الكفار<sup>(٢)</sup> حين دعتهم الرسل للتأسي [بهم]<sup>(٣)</sup>: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، مَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن ما معه<sup>(٤)</sup> من الإيمان،

وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسي بالرسول ﷺ.

لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف، ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ الذين تحزبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف، ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَمَا يَأْتِكُمْ مِثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فإننا رأينا ما أخبرنا به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ في قلوبهم ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله.

ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله، لا يولون الأديار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: وفوا به، وأتموه، وأكملوه، فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبّلوا أنفسهم في طاعته.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤدياً لحقه لم ينقصه شيئاً.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ تكميل ما عليه، فهو شارع في قضاء ما عليه، ووفاء نجه ولما يكمله، وهو في رجاء تكمله، ساع في ذلك مجد.

﴿وَمَا يَدَّبُلُوا تَبْدِيلًا﴾ كما بذل غيرهم، بل لم يزالوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون، فهؤلاء الرجال على الحقيقة، ومن<sup>(٥)</sup> عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بسبب صدقهم، في أقوالهم وأحوالهم، ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ

(٥) في أ: وما عداهم، ولعل الصواب

ما أتته.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: فإن ذلك ما معه.

(١) في ب: يغالي.

(٢) في ب: المشركين.





وتغضبن لفقدها، فليس لي فيكن أرب  
وحاجة، وأنتم بهذه الحال.

﴿ففعالين أمتعنكم﴾ شيئاً مما عندي  
من الدنيا ﴿وأسرحكن﴾ أي: أفراتكن  
﴿سراحاً جميلاً﴾ من دون مفاضبة  
ولا مشاقمة، بل بسعة صدر، وانشراح  
بال، قبل أن تبلغ الحال إلى ما  
لا ينبغي.

﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله  
والدار الآخرة﴾ أي: هذه الأشياء  
مرادكن، وغاية مقصودكن، وإذا  
حصل لَكُنَّ الله ورسوله والجنة، لم  
تبالين بسعة الدنيا وضيقها، ويسرها  
وعسرها، وقنعتن من رسول الله بما  
تيسر، ولم تطلبين منه ما يشق عليه،  
﴿فإن الله أهد للمحسنات منكن أجراً  
عظيماً﴾ رتب الأجر على وصفهن  
بالإحسان، لأنه السبب الموجب  
لذلك، لا لكوهن زوجات للرسول،  
فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد  
شيئاً مع عدم الإحسان، فخيرهن  
رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله  
ورسوله والدار الآخرة كلهن، ولم  
يتخلف منهن واحدة، رضي الله  
عنهن.

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله وغيرته  
عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة  
مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من  
تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في  
حرية نفسه، إن شاء أعطى، وإن شاء  
منع ﴿ما كان على النبي من حرج فيما  
فرض الله له﴾.

ومنها: تنزيهه عن لو كان فيهن من  
تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار  
الآخرة عنها، وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله  
عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله  
ورسوله.

فحسم الله بهذا التخيير عنهن  
التسخط على الرسول، الموجب  
لسخطه، المسخط لربه، الموجب  
لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن وعلو  
درجتهن، وبيان علو همهن، أن  
كان الله ورسوله والدار الآخرة  
مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا  
وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار،  
للأمر الخيار، للوصول إلى خيار  
درجات الجنة، وأن يكنَّ زوجاته في  
الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن،  
فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون  
نساؤه<sup>(١)</sup> كاملات مكملات، طيبات  
مطيبات ﴿الطيبات للطيبين والطيبون  
للطيبات﴾.

ومنها: أن هذا التخيير داع،  
وموجب للقناعة التي يطمئن لها  
القلب، وينشرح لها الصدر، ويزول  
عنهن جشع الحرص، وعدم الرضا  
الموجب لقلق القلب واضطرابه، وهمه  
وغمه.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا،  
سبباً لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن  
يكنَّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء،  
ولهذا قال:

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿يا نساء النبي من

يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها  
العذاب ضعفين وكان ذلك على الله  
يسيراً \* ومن يقنت منكن لله ورسوله  
وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين  
وأعنتنا لها رزقاً كريماً﴾

لما اخترن الله ورسوله والدار  
الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهن،  
ومضاعفة وزرهن وإثمهن لو جرى  
منهن، ليزداد حذرهن، وشكرهن الله  
تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة  
ظاهرة لها العذاب ضعفين.

﴿ومن يقنت منكن﴾ أي: تطيع  
﴿الله ورسوله وتعمل صالحاً﴾ قليلاً أو  
كثيراً، ﴿نؤتها أجرها مرتين﴾، ﴿وأعنتنا لها  
رزقاً كريماً﴾، وهي الجنة، فقنتن الله  
ورسوله، وعملن صالحاً، فعلم بذلك  
أجرهن.

﴿٣٢-٣٤﴾ ﴿يا نساء النبي لستن  
كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن  
بالقول قطع الذي في قلبه مرض  
وقلن قولاً معروفاً \* وقرن في بيوتكن  
ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن  
الصلاة وآتين الزكاة وأطمن الله ورسوله  
إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس  
أهل البيت ويطهركم تطهيراً \*  
وأذكرن ما بئل في بيوتكن من آيات الله  
والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ يقول  
تعالى: ﴿يا نساء النبي﴾ خطاب لهن  
كلهن ﴿لستن كأحد من النساء إن  
اتقيتن﴾ الله، فإنكن بذلك تفقن  
النساء، ولا يلحقكن أحد من النساء،  
فكملن التقوى بجميع وسائلها  
ومقاصدها.

فلهذا أرشدن إلى قطع وسائل  
المحرم، فقال: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾  
أي: في غطابة الرجال، أو بحيث  
يسمعون فتلن في ذلك، وتتكلمن  
بكلام رقيق يدعو وبطمع ﴿الذي في  
قلبه مرض﴾ أي: مرض شهوة الزنا،  
فإنه مستعد، ينظر أدنى محرك يحركه،  
لأن قلبه غير صحيح، [فإن القلب

أي: فاحذوا ربكم واشكروه على هذه الأوامر والنواهي، التي أخبركم بمصلحتها وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجاً ولا مشقة، بل لتتذكروا نفوسكم، ولتتطهر أخلاقكم، وتحسن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

ولما أمرهن بالعمل الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم، وبين لهن طريقه، فقال: ﴿وَأذَكُرْنَ مَا يَتْلُو فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ والمراد بآيات الله، القرآن. والحكمة، أسراره. أو سنة رسوله. وأمرهن بذكره، يشمل ذكر لفظه، بتلاوته، وذكر معناه، بتدبره والتفكير فيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يدرك أسرار<sup>(٥)</sup> الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتسرى.

فلطفه وخبرته، يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال.

ومن معاني «اللطيف» الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكررها النفوس ما يكون ذلك طريقاً<sup>(٦)</sup> إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَائِتِينَ وَالْقَائِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَّصِدِقِينَ وَالْمُتَّصِدِقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجِهِمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا

إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش<sup>(٧)</sup> لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه، ويمجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فلْيَعْرِفْ أن ذلك مرض.

فلْيَجْتَهِدْ في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الردية، ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: اقررن فيها، لأنه أسلم وأحفظ لكنن، ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ﴾ تبرج الجاهلية الأولى<sup>(٨)</sup> أي: لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للنشر وأسبابه.

ولما أمرهن بالتقوى عموماً، وبجزئيات من التقوى، نص عليها [الحاجة]<sup>(٩)</sup> النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة، اللتان يجتاههما ويضطر إليهما كل أحد، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهن بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وَأَطِئْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يدخل في طاعة الله ورسوله، كل أمر أمر به أمر إيجاب أو استحباب.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بأمركن بما أمركن به، ونهيكن بما<sup>(١٠)</sup> نهاكن عنه، ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي: الأذى والشر والخبث، يا «أهل البيت» ويطهركم تطهيراً<sup>(١١)</sup> حتى تكونوا طاهرين مطهرين.

الصحيح<sup>(١٢)</sup>، ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تنكاد تميله ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب، الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد، يدعوه إلى الحرام، يجيب دعوته، ولا يتعاصى عليه، فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد. فإن الخضوع بالقول واللين فيه، في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلين لهم القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بليِّن خاضع.

وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ولم يقل: «فلا تليِّن بالقول» وذلك لأن النهي عنه القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانتكارها عنده، والخاضع هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاماً ليناً ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فَمَا رَحِمَ اللَّهُ لَتَّ لَتِمْ﴾ وقال موسى وهارون: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى.

ودل قوله: ﴿فِيَطْمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفرجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد

(١) زيادة من: ب، لا يستقيم الكلام بدونها.

(٢) كذا في: ب، وفي أ: يشتهي، والأقرب ما أثبت.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: عفا.

(٥) في ب: سرائر.

(٦) زيادة من: ب.

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعاً عاماً للمؤمنين، أن الأدعية ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم نكاحهن.

وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلاً، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، وكان زيد بن حارثة يدعى «زيد بن محمد» قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه حتى نزل: «ادعوهم لأبائهم» فقيل له: «زيد بن حارثة».

وكانت تحت زينب بنت جحش، ابنة عمه رسول الله ﷺ، وقد كان قد وقع في قلب الرسول، لو طلقها زيد، لتزوجها، فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها.

قال الله: «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه» أي: بالإسلام «وأنعمت عليه» بالعتق<sup>(٣٦)</sup>، حين جاءك مشاوراً في فراقها: فقلت له ناصحاً ونخيراً بمصلحتك<sup>(٣٧)</sup>، مع وقوعها في قلبك: «أمسك عليك زوجك» أي: لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها، «واتق الله» تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة، فإن التقوى تحث على الصبر وتأمرك به.

«وتخفي في نفسك ما الله مبديه» والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد لتزوجها ﷺ.

«وتخشى الناس» في عدم إبداء ما في نفسك «والله أحق أن تخشاه»<sup>(٣٥)</sup> وأن لا تباليهم شيئاً، «فلما قضى زيد منها وطراً» أي: طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها. «زوجناكها» وإنما

لذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات. «وأجرأ عظيماً» لا يقدر قدره، إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿٣٦﴾ «وما كان المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً» أي: لا ينبغي ولا يليق عن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتنال أمرهما، واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة «إذا قضى الله ورسوله أمراً» من الأمور، وحثماً به والزمه به «أن يكون لهم الخيرة من أمرهم» أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة، أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاً بينه وبين أمر الله ورسوله.

«ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً» أي: بيناً، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصل إلى كرامة الله، إلى غيرها من الطرق الموصل للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخوف بالضللال، الدال على العقوبة والنكال.

﴿٣٧﴾ «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً»

عظيماً» لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ وعقابهن [لو قدر عدم الامتنال]<sup>(٣٨)</sup> وأنه ليس مثلهن أحد من النساء، ذكر بقية النساء غيرهن.

ولما كان حكمهن والرجال واحداً، جعل الحكم مشتركاً، فقال: «إن المسلمين والمسلمات» وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قائلين بها. «والمؤمنين والمؤمنات» وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله.

«والمقاتلين» أي: المطيعين لله ولرسوله «والمقاتلات والصادقين» في مقالهم وفعالهم «والمصادقات» «والصابرين» على الشدائد والمصائب «والصابرات والحاشعين» في جميع أحوالهم، خصوصاً في عبادتهم، خصوصاً في صلواتهم «والحاشعات» «والمتصدقين» فرضاً ونفلاً «والمتصدقات والصائمين والصائمات» شمل ذلك الفرض والنفل. «والحافظين فروجهم» عن الزنا ومقدماته «والحافظات» «والذاكرين الله [كثيراً]» أي: [٣٩] في أكثر الأوقات، خصوصاً أوقات الأورد المقيدة، كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات «والذاكرات».

«أعد الله لهم» أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر، الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان.

فجازاهم على عملهم بالمغفرة

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) في هامش ب: والإرشاد والتعليم.

(٤) في هامش ب: مقدماً لها على رغبتك.

(٥) في هامش ب: فإن خشية جالبة لكل خير، [مانعة] من كل شر (مع أن كلمة مانعة غير واضحة في الأصل).





وإدعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً \*  
 وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً  
 كبيراً \* ولا تطع الكافرين والمنافقين  
 ودع أذنهم وتوكل على الله وكفى بالله  
 وكيلاً \* هذه الأشياء التي وصف الله  
 بها رسوله محمداً ﷺ، هي المقصود من  
 رسالته وزيدتها وأصولها التي اختص  
 بها، وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه  
 \*شاهداً\* أي: شاهداً على أمته بما  
 عملوه من خير وشر، كما قال تعالى:  
 \*لتكونوا شهداء على الناس ويكون  
 الرسول عليكم شهيداً\* \*فكيف إذا  
 جئنا من كل أمة بشهيد وجئناك على  
 هؤلاء شهيداً\* فهو ﷺ شاهد عدل  
 مقبول.

الثاني، والثالث: كونه \*مبشراً  
 ونذيراً\* وهذا يستلزم ذكر المبشر  
 والمنذر، وما يبشر به وينذر، والأعمال  
 الموجبة لذلك.

فالمبشرون هم: المؤمنون المتقون،  
 الذين جمعوا بين الإيمان والعمل  
 الصالح، وترك المعاصي، لهم البشري  
 في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي  
 وديني، رتب على الإيمان والتقوى،  
 وفي الآخرة بالنعيم المقيم.

وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل  
 المذكور، من تفاصيل الأعمال،  
 وخصال التقوى، وأنواع الثواب،  
 والمنذر، هم: المجرمون الظالمون،  
 أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في  
 الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية  
 الأخرى، بالعقاب الويبيل، والعذاب  
 الطويل.

وهذه الجملة تفصيلها، ما جاء  
 به ﷺ من الكتاب والسنة، المشتمل  
 على ذلك.

الرابع: كونه \*داعياً إلى الله\* أي:  
 أرسله الله يدعو الخلق إلى ربه،  
 ويسوقهم<sup>(٢)</sup> لكرامته، ويأمرهم بعبادته  
 التي خلقوا لها، وذلك يستلزم  
 استقامته على ما يدعو إليه، وذكر  
 تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربه

وينبغي مداومة ذلك في جميع  
 الأوقات، على جميع الأحوال، فإن  
 ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو  
 مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته،  
 وعون على الخير، وكف اللسان عن  
 الكلام القبيح.

\*وسبحوه بكرة وأصيلاً\* أي:  
 أول النهار وآخره، لفضلها وشرفها،  
 وسهولة العمل فيها.

\*هو الذي يصلي عليكم وملائكته  
 ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان  
 بالمؤمنين رحيماً\* أي: من رحمته  
 بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من  
 صلاته عليهم وثباته، وصلاة ملائكته  
 ودعاتهم، ما يخرجهم من ظلمات

الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان  
 والتوفيق والعلم والعمل، فهذه أعظم  
 نعمة أنعم بها على العباد الطائعين،  
 تستدعي منهم شكرها، والإكثار من  
 ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم،  
 وجعل حلة عرشه أفضل الملائكة،  
 ومن حوله يسبحون بحمد ربه  
 ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون:  
 \*ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً  
 فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم  
 عذاب الجحيم\* ربنا وأدخلهم جنات  
 عدن التي وعدتهم ومن صلح من  
 آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت  
 العزيز الحكيم \* وقهم السيئات ومن  
 تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو  
 الفوز العظيم.

فهذه رحمته ونعمته عليهم في  
 الدنيا.

وأما رحمته بهم في الآخرة، فأجل  
 رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا  
 ربه وتحيته، واستماع كلامه الجليل،  
 ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر  
 الكبير، الذي لا يدري ولا يعرف  
 كنهه، إلا من أعطاهم إياه، ولهذا  
 قال: \*تحياتهم يوم يلقونه سلام وأعد  
 لهم أجراً كريماً\*.

\*٤٥ - ٤٨\* يا أيها النبي إنا  
 أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً \*

ظاهرة، أي: لا أبوة نسب، ولا أبوة  
 ادعاء، وقد كان تقرر فيما تقدم أن  
 الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم،  
 وأزواجه أمهاتهم، فاحترز أن يدخل  
 في هذا النوع بعموم النهي المذكور،  
 فقال: \*ولكن رسول الله وخاتم  
 النبيين\* أي: هذه مرتبته فيما مرتبة المطاع  
 المشيوع، المهتدى به، المؤمن له، الذي  
 يجب تقديم محبته على محبة كل أحد،  
 الناصح الذي لهم، أي: للمؤمنين،  
 من بره [ونصحه]<sup>(١)</sup>، كأنه أب لهم.

\*وكان الله بكل شيء عليماً\* أي:  
 قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم  
 حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح  
 لفضله ومن لا يصلح.

\*٤١ - ٤٤\* يا أيها الذين آمنوا  
 اذكروا الله ذكراً كثيراً \* وسبحوه بكرة  
 وأصيلاً \* هو الذي يصلي عليكم  
 وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى  
 النور وكان بالمؤمنين رحيماً \* تحييتهم  
 يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً  
 كريماً \* يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكراً  
 كثيراً، من تهليل وتحميد وتسبيح  
 وتكبير وغير ذلك، من كل قول فيه  
 قربية إلى الله، وأقل ذلك، أن يلازم  
 الإنسان أورد الصباح والمساء، وأدبار  
 الصلوات الخمس، وعند العواض  
 والأسباب.

(٢) في ب: يشوقهم.

(١) زيادة من: ب.

الطلاق بعد النكاح، فذلك على أنه قبل ذلك لا محل له.

وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة وتحريم تام، لا يقع قبل النكاح، فالتحريم الناقص، لظهار أو إبلاء ونحوه، من باب أولى وأحرى، أن لا يقع قبل النكاح، كما هو أصح قولي العلماء.

ويدل على جواز الطلاق، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وعلى وجه لم يلمهم عليه ولم يؤنبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جوازه قبل المسيس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن﴾ وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج، حيث لا مانع، وعلى أن عليها العدة بعد الدخول.

وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء، كما هو مجمع عليه؟ أو وكذلك الخلوة، ولو لم يحصل معها وطء، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح. فمن دخل عليها، وطئها أم لا، إذا خلاها، وجب عليها العدة.

وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر، فإن كان لها مهر مفروض، فإنه إذا طلق قبل الدخول تنصّف المهر، وكفى عن المتعة، وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده، أن يكون الفراق جيلاً، يحمّد فيه كل منهما الآخر.

ولا يكون غير جميل، فإن في ذلك من الشر المرتب عليه، من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدة حق للزوج، لقوله: ﴿فما لكم عليهن من عدة دل مفهومه، أنه لو طلقها بعد المسيس، كان له عليها عدة [وعلى أن المفارقة

يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع، كما أن من حكمه، أن يذكر في مقام الترهيب، العقوبات المرتبة على ما يهرب منه، ليكون عوناً على الكف عما حرّم الله.

ولما كان ثمّ طائفة من الناس، مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون، الذين أظهروا الموافقة في الإيمان،

وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً، نهي الله رسوله عن طاعتهم، وحذره ذلك، فقال: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي: في كل أمر يصد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، إبل لا تطعمهم ﴿ودع أذاهم﴾<sup>(٢٦)</sup> فإن ذلك جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله، ﴿وتوكل على الله﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك، ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ تُوكل إليه الأمور المهمة، فيقوم بها ويسهلها على عبده.

﴿٤٩٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فتمتعوهن وسرحوهن سراحاً جيلاً﴾ يخبر تعالى المؤمنين، أنهم إذا نكحوا المؤمنات، ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتدها<sup>(٢٧)</sup> أزواجهن عليهن، وأمرهم بتمتعيهن<sup>(٢٨)</sup> بهذه الحالة، بشيء من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر لخواطرهن، لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقاً جيلاً، من غير خاصمة ولا مشائمة ولا مطالبة، ولا غير ذلك.

ويستدل بهذه الآية، على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح. فلو طلقها قبل أن ينكحها، أو علق طلاقها على نكاحها، لم يقع، لقوله: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾ فجعل

بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه ﴿سراجاً منيراً﴾ وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهدي به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها<sup>(٢٩)</sup>، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضلالاً إلى الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة قد وضع لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة.

وقوله: ﴿ويبشّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ ذكر في هذه الجملة المبشّر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة.

وذكر المبشّر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكرب، وكثرة الأرزاق الدائرة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربه وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما ينشط العاملين، أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم، ما به

(١) كذا في ب، وفي أ: جهاتها.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في النسختين ولعل الصواب تعتدها.

(٤) كذا في ب، وفي أ: بتمتعن.

يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده وإحسانه، ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿٥١﴾ ﴿ترجي من تشاء منهمن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك فهو تبرع منه، ومع ذلك، فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك».

فقال هنا: ﴿ترجي من تشاء منهمن﴾ [أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها] ﴿٥١﴾، ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي: تضمها وتبيت عندها.

﴿ومع ذلك لا يتعين هذا الأمر من ابتغيت﴾ أي: تؤويها ﴿فلا جناح عليك﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله [وقال كثير من المفسرين إن هذا خاصٌّ بالوهابيات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له وإن شاء لم يقبلها والله أعلم] ﴿٥١﴾.

ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿ذلك﴾ أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعاً إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك ﴿أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتن كلهن﴾ لعلمهن أنك لم تترك واجباً، ولم تفرط في حق لآزم.

النساء، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح.

وقوله: ﴿اللاي هاجرن معك﴾ قيد لخل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة.

﴿وأحللنا لك امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ بمجرد هبتها نفسها.

﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة، ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ يعني: إباحة المؤهبة<sup>(١)</sup>. وأما المؤمنون، فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم.

﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ أي: قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين. وقد علمناهم بذلك، وبيننا فرائضه.

فما في هذه الآية، مما يخالف ذلك، فإنه خاص لك، لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وأبحننا لك يا أيها النبي ما لم نبح لهم، ووسعنا لك ما لم توسع على غيرك، ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ.

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: لم

بالوفاء تعتد مطلقاً لقوله: ﴿ثم طلقتموهن﴾ الآية<sup>(٢)</sup>.

وعلى أن من عدا غير المدخول بها، من المفارقات من الزوجات، يموت أو حياة، عليهن العدة.

﴿٥٠﴾ ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يقول تعالى، ممتناً على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك هو والمؤمنون، وما يتفرد به ويختص: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ أي: أعطيتهن مهورهن، من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين [فإن المؤمنين]<sup>(٣)</sup>، كذلك يباح لهم ما<sup>(٤)</sup> آتوهن أجورهن من الأزواج.

﴿وكذلك أحللنا لك﴾ وما ملكت يمينك﴾ أي: الإماء التي ملكت ﴿مما أفاء الله عليك﴾ من غنمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن، وهذا أيضاً مشترك.

وكذلك من المشترك، قوله: ﴿وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ شمل العم والعمة، والخال والخالة، القريبين والبعيدين، وهذا حصر المحللات.

يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل، كما تقدم في سورة

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في أ، وفي ب: من.

(٤) في ب: المؤهوبة.

(٥) زيادة من ب.

(٦) زيادة من هامش (ب) وفي بعض الكلمات عدم وضوح وتم تصويبها من طبعة السلفية.



وأما أدبهم معه في خطاب زوجته، فإنه إما أن يحتاج إلى ذلك، أم لا يحتاج إليه، فإن لم يحتاج إليه فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتيج إليه، كأن يسألن متاعاً، أو غيره من أواني البيت أو نحوها، فإنهن يسألن ﴿من وراء حجاب﴾ أي: يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر، لعدم الحاجة إليه.

فصار النظر إليهن ممنوعاً بكل حال، وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله، ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ لأنه أبعد عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأطهر لقلبه.

فهذا، من الأمور الشرعية التي بين الله كثيراً من تفاصيلها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿وما كان لكم﴾ يا معشر المؤمنين، أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء ﴿أن تؤذوا رسول الله﴾ أي: أذية قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلق به، ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ هذا من جملة ما يؤذيه، فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوج زوجته،

النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴿إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾ يأمر تعالى عبياده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام﴾ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام. وأيضاً لا تكونوا ناظرين إناه، أي: منتظرين ومتأنين لانتظار نضجه، أو سعة صدر بعد الفراغ منه. والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين:

الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث﴾ أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بين حكمة النهي وفائدته فقال: ﴿إن ذلكم﴾ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة، ﴿كان يؤذي النبي﴾ أي: يتكلف منه ويشق عليه جسكم إياه عن شؤون بيته، واشتغاله فيه ﴿فيستحي منكم﴾ أن يقول لكم: «اخرجوا» كما هو جاري العادة، أن الناس - وخصوصاً أهل الكرم منهم - يستحبون أن يخرجوا الناس من مساكنهم، ﴿و﴾ لسكن الله لا يستحي من الحق.

فالأمر الشرعي، ولو كان يتوهم أن في تركه أدباً وحياءً، فإن الحزم كل الحزم، اتباع الأمر الشرعي، وأن يجوز أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء. والله تعالى لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كأنما ما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوته،

﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزاحمة في الحقوق، فلذلك شرع لك التوسعة بما رسول الله، لتطمئن قلوب زوجاتك. ﴿وكان الله عليماً حليماً﴾ أي: واسع العلم، كثير الحلم. ومن علمه، أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم، وأكثر لأجوركم. ومن حلمه، أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

﴿٥٢﴾ ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ وهذا شكر من الله، الذي لم يزل شكوراً لزوجات رسوله، رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، أن رحمن، وقصر رسوله عليهن، فقال: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ زوجاتك الموجودات ﴿ولا أن تبدل بهن من أزواج﴾ أي: ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بدلها.

فحصل هذا أمنهن من الضرائر، ومن الطلاق، لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة.

﴿ولو أعجبك حسنهن﴾ أي: حسن غيرهن، فلا يحلن لك ﴿إلا ما ملكت يمينك﴾ أي: السراي، فذلك جائز لك، لأن المملوكات في كراهة الزوجات، لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات. ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ أي: مراقباً للأموار، وعالماً بما إليه تؤول، وقائماً بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي



المسلمين .

ولم يذكر المعمول الذي ينتهون عنه ،  
ليعم ذلك كل ما توحى به أنفسهم  
إليهم وتوسوس به وتدعو إليه من  
الشهر ، من التعريض بسبب الإسلام  
وأهله ، والإرجاف بالمسلمين ، وتوهين  
قواهم ، والتعرض للمؤمنات بالسوء  
والفاحشة ، وغير ذلك من المعاصي  
الصادرة من أمثال هؤلاء .

﴿لنغفرينك بهم﴾ أي : نامرك  
بعقوبتهم وقتالهم ، ونسلطك عليهم ،  
ثم إذا فعلنا ذلك ، لا طاقة لهم بك ،  
وليس لهم قوة ولا امتناع ، ولهذا  
قال : ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا  
قليلاً﴾ أي : لا يجاورونك في المدينة  
إلا قليلاً ، بأن تقتلهم أو تضيهم .

وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر ،  
الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر  
المسلمين ، فإن ذلك أحسم للشر وأبعد  
بئنه ، ويكونون ﴿ملموعين أينما ثقفوا  
أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾ أي : مبعدين  
أين (٣) وجدوا ، لا يحصل لهم أمن ،  
ولا يقر (٤) لهم قرار ، يخشون أن  
يقتلوا ، أو يجسوا ، أو يعاقبوا .

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾  
أن من تهادى في العصيان ، وتجراً على  
الأذى ، ولم ينته منه ، فإنه يعاقب عقوبة  
بليغة . ﴿ولن نمد لسنة الله تبديلاً﴾  
أي : تغييراً ، بل سنة الله تعالى وعادته  
جارية مع الأسباب المقتضية  
لأسبابها (٥) .

﴿٦٣ - ٦٨﴾ يسألك الناس عن  
الساعة قل إنما علمها عند الله وما  
يدريك لعل الساعة تكون قريباً \* إن  
الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً \*  
خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا  
نصيراً \* يوم تقلب وجوههم في النار  
يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا  
الرسول \* وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا

لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين  
عليهن من جلابييهن ذلك أدنى أن  
يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً  
رحيماً \* لئن لم ينته المنافقون والذين  
في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة  
لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا  
قليلاً \* ملموعين أينما ثقفوا أخذوا  
وقتلوا تقتيلاً \* سنة الله في الذين خلوا  
من قبل ولن نمد لسنة الله تبديلاً \* هذه  
الآية التي تسمى آية الحجاب ، فأمر الله  
نبيه أن يأمر النساء عموماً ، ويبدأ  
بزوجاته وبناته ، لأنهن أكد من  
غيرهن ، ولأن الأمر [لغيره] (١) ينبغي  
أن يبدأ بأهله قبل غيرهم ، كما قال  
تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم  
وأهليكم ناراً﴾ .

أن يدنين عليهن من جلابييهن  
وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحفة  
وخمار ورداء ونحوه ، أي : يغطين بها  
وجوههن وصدورهن .

ثم ذكر حكمة ذلك ، فقال : ﴿ذلك  
أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ دل على  
وجود أدنى إن لم يحتجبن ، وذلك لأنهن  
إذا لم يحتجبن ، ربما ظن أنهن غير  
عفيفات ، فيتعرض لهن من في قلبه  
مرض فيؤذيهن ، وربما استهين بهن ،  
وظن أنهن إماء ، فتهاون بهن من يريد  
الشر . فالاحتجاب حاسم لمطامع  
الظالمين فيهن .

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ حيث  
غفر لكم ما سلف ورحمكم ، بأن بين  
لكم الأحكام ، وأوضح الحلال  
والحرام ، فهذا سد للباب من جهتهن .

وأما من جهة أهل الشر فقد  
توعدهم بقوله : ﴿لئن لم ينته المنافقون  
والذين في قلوبهم مرض﴾ أي : مرض  
شك أو شهوة ﴿والمرجفون في المدينة﴾  
أي : المخوفون المرهبون الأعداء ،  
المحدثون (٢) بكثرتهم وقوتهم ، وضعف

(١) زيادة من هامش : ب .

(٢) في ب : المتحدثون .

(٣) في ب : حيث .

(٤) كذا في ب ، وفيه : ولا يقرر .

(٥) كذا في السختين ولعله والله أعلم

المقتضية لمسيباتها .

(٦) كذا في ب ، وفيه : قد .

(٧) في ب : والشقاوة .

(٨) زيادة من : ب .



وكبراءنا فأضلونا السبيلا \* ربنا آتهم  
ضعفين من العذاب والعنهم لعنا  
كبيراً﴾ أي : يستخبرك الناس عن  
الساعة استعجالاً لها ، وبعضهم تكديماً  
لوقوعها ، وتعميراً للذي أخبر بها .  
﴿قل﴾ لهم : ﴿إنما علمها عند الله﴾  
أي : لا يعلمها إلا الله ، فليس لي  
ولا لغيري بها علم ، ومع هذا ، فلا (١)  
تستظؤوها .

﴿وما يدريك لعل الساعة تكون  
قريباً﴾ وبمجرد مجيء الساعة ، قريباً  
وبعداً ، ليس تحتها نتيجة ولا فائدة ،  
وإنما النتيجة والخسار والريح ،  
والشقا (٢) والسعادة ، هل يستحق العبد  
العذاب ، أو يستحق الثواب ؟ فهذه  
سأخبركم بها ، وأصف لكم مستحقها .

فوصف مستحق العذاب ، ووصف  
العذاب ، لأن الوصف المذكور منطبق  
على هؤلاء الكاذبين بالساعة ، فقال :  
﴿إن الله لعن الكافرين﴾ [أي : (٨)]  
الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم  
الكفر بالله وبرسوله ، وبما جازوا به من  
عند الله ، فأبعدهم في الدنيا والآخرة  
من رحمته ، وكفى بذلك عقاباً ، ﴿وأعد  
لهم سعيراً﴾ أي : ناراً موقدة ، تسمر